التّفسير

(١)
(مِنْ فرائض السّورة حَدُّ الزّانيين غير المتزوّجين، وحَدُّ القذف، وكيفيّةُ لِعان الزّوجين)
الآيات (١ـ ١٠)

سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾

سورةٌ أنزلناها: هذه سورةٌ أنزلناها(١)

وفرضناها: بتخفيف الرّاء بمعنى أوجبنا ما فيها من الأحكام عليكم وألزمناكموه وبيّنّا ذلك لكم(٢)

هذه سورةٌ كريمة أنزلناها على عبدنا محمّد ﷺ بعد هجرته إلى المدينة المنوّرة، وفرضنا عليكم ما فيها من أحكامٍ وألزمناكم بها، إن كنتم تؤمنون بالله تعالى واليوم الآخر، وأنزلنا فيها آياتٍ بيّناتٍ وحججاً واضحات، لعلّكم تتّعظون وتعتبرون.

ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

الزّانية والزّاني فاجلدوا كلّ واحد منهما مائة جلدة: مَنْ زنى من الرّجال أو زنت من النّساء وهو حرٌّ بكرٌ غير مُحْصَنٍ بزوج فاجلدوه ضرباً مائة جلدة عقوبةً لما صنع وأتى من معصية الله(٣) والجلدة بمعنى الضّربة. يقال: جلده ضَرَبَ جِلْده. ويزاد على ذلك بالسُّنّة تغريب عام. والرّقيق على النّصف ممّا ذكر(٤)

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ٥١ والجلالين

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ٥١

(٣) تفسير الطّبري ١٨/ ٥٢

(٤) الجلالين

ولا تأخذكم بهما رأفة: ولا تأخذكم بالزّاني والزّانية أيّها المؤمنون رأفة، وهي رقّة الرّحمة(١)

في دين الله: في طاعة الله فيما أمركم به من إقامة الحدّ عليهما على ما ألزمكم به(٢) وقال مجاهد: لا تأخذكم بهما رأفة: لا تضيّعوا الحدود في أن تقيموها. وقالها عطاء بن أبي رباح(٣)

وليشهد عذابهما: وليحضر جلد الزّانيين البكرين وحدّهما إذا أقيم عليهما(٤)

طائفةٌ من المؤمنين: العرب تسمّى الواحد فما زاد طائفة(٥) قال مجاهد: أقلّه رجل(٦) وقال: الطّائفة الواحد إلى الألف(٧) وقال آخرون: أقلّه في هذا الموضع رجلان(٨) وقال آخرون: أقلّ ذلك ثلاثةٌ فصاعدا(٩) وقال آخرون: بل أقلّ ذلك أربعة(١٠) قال ابن زيد: الطّائفة الّتي يجب بها الحدّ أربعة(١١) ويقول الطّبري(١٢): «وأوْلى الأقوال في ذلك بالصّواب قول من قال: أقلّ ما ينبغي حضور ذلك من عدد المسلمين الواحد فصاعداً. وذلك أنّ الله عمّ بقوله: ﴿وليشهد عذابهما طائفةٌ﴾ والطّائفة قد تقع عند العرب على الواحد فصاعداً»

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ٥٢

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ٥٢

(٣) تفسير الطّبيري ١٨/ ٥٣

(٤) تفسير الطّبري ١٨/ ٥٤

(٥) تفسير الطّبري ١٨/ ٥٤

(٦) تفسير الطّبري ١٨/ ٥٤

(٧) تفسير الطّبري ١٨/ ٥٤

(٨) تفسير الطّبري ١٨/ ٥٤

(٩) تفسير الطّبري ١٨/ ٥٥

(١٠) تفسير الطّبري ١٨/ ٥٥

(١١) تفسير الطّبري ١٨/ ٥٥

(١٢) تفسير الطّبري ١٨/ ٥٥

وأضاف الطّبري[1]: «غير أنّي وإن كان الأمر على ما وصفت أستحبّ ألاّ يُقَصَّر بعدد من يحضر ذلك الموضع عن أربعة أنفس، عدد من تُقْبَل شهادته على الزّنا، لأنّ ذلك إذا كان كذلك فلا خلاف بين الجميع أنّه قد أدّى المقيم الحدّ ما عليه في ذلك، وهم فيما دون ذلك مختلفون»

يأمر الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة ولاة الأمر من المسلمين أن يجلدوا، من يزني من الرّجال أو النّساء، وهو حرٌّ بِكرٌ غير مُحْصَن أي غير متزوّج، مائة جلدة، أي مائة ضربة على جلده. وتنهى الآية الكريمة ولاة الأمر من المسلمين أن تأخذهما بالزّاني والزّانية رأفةٌ في دين الله تعالى وعاطفةٌ في طاعة الله تعالى تمنعهما من إقامة الحدّ، إن كان ولاة الأمر من المسلمين يؤمنون بالله تعالى وباليوم الآخر. وفوق ذلك ينبغي أن يشهد إقامة الحدّ طائفةٌ من المسلمين وجماعةٌ من المؤمنين، واحدٌ فما فوق، كي تتحقّق العبرة.

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ٥٥

ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ
مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

الزّاني لا ينكح إلاّ زانيةً أو مشتركة: الزّاني لا يجامع(١) ولا يطأ(٢) إلاّ زانيةً أو مشركة. قال ابن عبّاس: لا يزنى إلاّ بزانية أو مشركة(٣) وقال: الزّاني من أهل القبلة لا يزنى إلاّ بزانية مثله أو مشركة. قال: والزّانية من أهل القبلة لا تزنى إلا بزانٍ مثلها من أهل القبلة أو مشركٍ من غير أهل القبلة(٤) وقال ابن زيد في قول الله: ﴿الزّاني لا ينكح إلاّ زانيةً أو مشركةً والزّانية لا ينكحها إلاّ زانٍ أو مشرك﴾ قال: هؤلاء بغايا كنّ في الجاهليّة. والنّكاح في كتاب الله الإصابة. لا يصيبها إلاّ زانٍ أو مشرك لا يحرّم الزّنا، ولا تصيب هي إلاّ مثلها(٥) قال ابن عبّاس: كنّ بغايا في الجاهلية على أبوابهنّ رايات مثل رايات البَيْطار يعرفن بها(٦)

وَحُرِّم ذلك على المؤمنين: وحُرّم الزّنا على المؤمنين بالله ورسوله. وذلك هو النّكاح الّذي قال جلّ ثناؤه: ﴿الزّاني لا ينكح إلاّ زانية﴾(٧)

يبيّن الحقّ جلّ وعلا أنّ الزّاني من أهل القبلة لا يطأ ولا يجامع إلاّ زانيةً مثله

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ٥٨

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ٥٨

(٣) تفسير الطّبيري ١٨/ ٥٨

(٤) تفسير الطّبري ١٨/ ٥٨

(٥) تفسير الطّبري ١٨/ ٥٨

(٦) تفسير الطّبري ١٨/ ٥٧ والبَيْطار : معالج الدّوابّ.

(٧) تفسير الطّبري ١٨/ ٥٩

أو مشركةً من غير أهل لقبلة، وأنّ الزّانية من أهل القبلة لا يطؤها ولا يجامعها إلاّ زان مثلها أو مشركٌ من غير أهل القبلة. وتقرّر الآية الكريمة أنّ الحقّ جلّ وعلا حرّم الزّنا على المؤمنين، رجالاً ونساءً، الّذين يؤمنون بالله تعالى ربّاً، وبمحمّد ﷺ رسولاً، وبالقرآن الكريم منهجاً.

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تجمع بين الزّاني والزّانية، وبين المشرك والمشركة، وتسوّى بين مرتكب جريمة الزّنا، ومرتكب الذّنب الّذي لا يغفره الله تعالى، وهو الإشراك مع الله تعالى غيره في العبادة. وبذلك يكاد يكون الزّنا شركاً.

ولماذا يكاد الزّنا يكون شركاً؟ بسبب ما يترتّب على ارتكاب جريمة الزّنا من أذىً في حقّ الفرد والجماعة والأمّة لا يعلم مداه إلاّ الله تعالى. ولو أنّ من يسوّل له الشّيطان الرّجيم والنّفس الأمّارة بالسّوء ارتكاب هذا الصّغار يفكّر في عواقب الزّنا الوخيمة، مقابل لذّةٍ عاجلةٍ عابرةٍ آثمة، لآثر السّلامة والابتعاد عن هذا الصّغار.

ما معنى الزّنا في أبسط الصّور؟ كشف العورات بالحرام وهتك الأعراض. وهل يرضى إنسانٌ خليق بهذا الاسم ويتّصف بأيّ قدرٍ من الإنسانيّة أن يُهتَكَ عِرْضه أو أن يهتك عرض الآخرين. الجواب معروفٌ بالنّفي. جاء في سورة الأعراف(١) قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتِكُمْ وريشاً. ولباسُ التّقوى ذلك خير. ذلك من آيات الله لعلّهم يذّكّرون. يا بني آدم لايفتننّكم الشّيطان كما أخرج أبويكم من الجنّة يَنْزِع عنهما لباسَهُما ليُرِيَهُما سوءاتهما. إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم. إنّا جعلنا الشّياطين أولياءَ للّذين لا يؤمنون﴾

وما معنى ارتكاب جريمة الزّنا لا سمح الله؟ سفك ماء الحياة وسفحه، ذلك الماء الّذي ينبغي أن يوضع بالحلال في موضعه كي يتحقّق الغرض الأسمى من

---

(١) الآية ٢٦ و٢٧

الاتّصال وهو إنجاب الذّرّيّة المؤمنة إضافةً إلى الاستمتاع. وبذلك يكون معنى ارتكاب جريمة الزّنا في أبسط الصّور التّخلّي عن المسئوليّة، والإلقاء بها، إن كان ثمّة مسئوليّة، على الآخرين. إنّ الزّاني يريد أن يحصل على المتعة وحدها، ويريد أن يأخذ الأجر دون عملٍ وتحمّل مسئوليّة. وإذا ترتّب على هذه الجريمة مسئوليّةٌ فليس الزّاني طرفاً فيها. إنّما تقع المسئوليّة على الطّرف الآخر، على المرأة، وعلى الجماعة، وعلى الأمّة. والحقيقة أنّ التّعبير الصّحيح هو لفظة الخسارة بدلاً من لفظة المسئوليّة. والحقيقة كذلك أنّ الزّاني أول الخاسرين وكذلك الزّانية.

عرفنا أنّ الزّاني يسفح ماء حياته سفحاً فمثله كمثل الّذي يسكب الماء في الأرض هَدْراً دون هدف. وشتّان بين سكب ماء الحياة وسكب ماء المزن. إنّهما ثمينان ولكنّ ماء الحياة أثمن وأغلى.

ومَنْ زَعَم أنّ الزّاني لا يدفع الثّمن غالياً؟ جاء في الحديث عن المصطفى ﷺ(١): لا يزنى الزّاني حين يزني وهو مؤمن. وهذا الّذي يقضي شهوته كيفما اتّفق أليس هو بمثابة من يقضي حاجته في أيّ مرحاضٍ يتيسّر له. وشتّان بين المرحاض الصّحّيّ الّذي يحرص أصحّاء العقول بشأنه على عدم نقل العَدْوى لأنّ ذلك ممكنٌ بإذن الله تعالى، وبين مرحاض الزّنا الّذي يعنى كلُّ مرّةٍ يُقْضَى الشّهوة فيه، بسبب الاتّصال المباشر، والوصول من الطّرف الآخر إلى فضائه وأعمق أعماقه، يَعْنى كلُّ مرّة نقل الأمراض العضويّة الفتّاكة الّتي تقضي على حياة الزّاني وتنتقل إلى ذرّيّته والعياذ بالله. ما أكثر الأمراض المنتشرة في الدّنيا الطّويلة العريضة، والأدواء المستعصية على كلّ علاج، بسبب ارتكاب جريمة الزّنا، وهجر طريق الطّهر والعفاف.

إنّي ـ مصادفةً ـ أكتب هذه السّطور في أثناء تحكيم مسابقة القرآن الكريم العالميّة التّاسعة والثّلاثين في كوالالمبور عاصمة ماليزيا حرسها الله تعالى من كلّ

---

(١) سنن ابن ماجه ٢/١٢٩٩ حديث رقم ٣٩٣

سوء. وقد تذكّرت في أثناء الكتابة تجربةً لنا نحن الحكّامَ في أثناء تحكيم مسابقة للقرآن الكريم محلّيّة منذ سنواتٍ في إحدى الدّول المجاورة بالمِنْطقة. إنّ أحبابنا المسلمين الأقلّيّة هنالك دعونا من باب الإكرام لنا إلى تناول طعام العشاء في مطعمٍ فخمٍ بقلب المدينة. لقد كان علينا أن نمشي على الأقدام من موقف السّيّارات إلى المطعم. وفي أثناء المشي وقعت أعيننا على الكثير من الإعلانات المخزية بمختلف الكتابات والوسائل الشّيطانيّة الجذّابة الخلابة. وتدور الإعلانات حول محورين متناقضين في نظر أولى البصائر والعقول النّيّرة، مقبولين في نظر الّذين أعمى الله تعالى بصائرهم وعقولهم. وأحد الإعلانين يدور حوال أنواع اللّحوم البشريّة المعروضة للحرام، وآخر الإعلانين، وهو سابقٌ للإعلان الآخر أو لاحقٌ به أو مساوٍ له، يدور حول توافر أنواع الأدوية الّتي تعالج الأمراض المترتّبة على ارتكاب الفحشاء!

لقد أحسن الغيورون صُنْعاً حينما منعوا الشّباب بخاصّةٍ من السّفر إلى مثل تلك البلاد.

الحقيقة أنّي لا أريد الإفاضة في دمار الأخلاق والأجساد الّذي يترتّب على ارتكاب هذا الصّغار، وأكتفي بالتّذكير بالأعداد المرعبة لضحايا مرض نقص المناعة وهو ما يسمّى بالإيدز، ثمرةً نكدةً لإتيان الفواحش. وإن كان ثمّة شيءٌ ينبغي كتابته لأخذ العِبْرة فهو ما أُفْصِحَ به لنا نحن الحكّام في تلك المسابقة القرآنيّة بأنّهم يبعثون شهريّاً بالعدد من جثث شباب أمّة الإسلام وهم في عمر الزّهور إلى بلادهم ملفوفين في أغطيةٍ محكمة الإغلاق كيلا تنتشر تلك الأوبئة في البلاد الّتي يعاد إليها شبابها جثثاً محنّطة. والعجب أنّ هذه العمليّات الضّروريّة المحزنة الّتي يقوم بها العاملون في تلك السّفارات، من الأسباب الّتي تحرمهم بالضّرورة من متابعة فعاليّات تلك المسابقات القرآنيّة كما ينبغي أن تكون المتابعة. ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله تعالى العليّ العظيم.

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾

والّذين يرمون المحصنات: والّذين يشتمون العفائف من حرائر المسلمين فيرمونهنّ بالزّنا (١).

ثمّ لم يأتوا: على ما رموهنّ به من ذلك(٢)

بأربعة شهداء: عدول يشهدون عليهنّ أنّهنّ رأوهنّ يفعلن ذلك(٣).

فاجلدوهم ثمانين جلدة: فاجلدوا الّذين رموهنّ بذلك ثمانين جلدة(٤).

وأولئك هم الفاسقون: وأولئك هم الّذين خالفوا أمر الله وخرجوا من طاعته ففسقوا عنها(٥).

إلاّ الّذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا: في رأي فريقٍ من العلماء توبة القاذف من ذلك صلاح حاله، وندمه على ما فَرَط منه من ذلك، والاستغفار منه، وتركه العود في مثل ذلك من الجرم. وذلك قول جماعةٍ من التّابعين وغيرهم(٦) وابن جريرٍ الطّبري يرى هذا الرّأي. يقول رحمه الله تعالى رحمةً

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٥٩.

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ٥٩

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٥٩

(٤) تفسير الطّبري ١٨/ ٥٩

(٥) تفسير الطبري ١٨/ ٥٩

(٦) تفسير الطبري ١٨/ ٦٣

واسعة[1] : «وهذا القول أولى القولين في ذلك[2] بالصّواب، لأنّ الله تعالى ذكره جعل توبة كلّ ذي ذنبٍ من أهل الإيمان تركه العود منه، والنّدم على ما سلف منه، واستغفار ربّه منه فيما كان من ذنبٍ بين العبد وبينه، دون ما كان من حقوق عباده ومظالمهم بينهم. والقاذف إذا أقيم عليه فيه الحدّ أو عفي عنه فلم يبق عليه إلاّ توبته من جرمه بينه وبين ربّه. فسبيل توبته منه سبيل توبته من سائر أجرامه».

فإنّ الله غفور: ساترٌ على ذنوبهم بعفوه لهم عنها[3].

رحيمٌ: بهم بعد التّوبة أن يعذّبهم عليها، فاقبلوا شهادتهم ولا تسموّهم فسقة، بل سمّوهم بأسمائهم الّتي هي لهم في حال توبتهم[4].

سبب النّزول

روي أنّ أولى الآيتين الكريمتين نزلت في الّذين رموا عائشة زوج النّبيّ ﷺ بما رموها به من الإفك[5]

ومن المعروف أنّه لا يمكن فصل الآية الكريمة الأخرى عن الأولى لأنها متعلّقةٌ بها ومترتّبةٌ عليها، وكأنّ ما يقال عن الآية الكريمة الأولى من زاوية سبب النّزول ينسحب على الآية الكريمة الأخرى.

والحقيقة أنّا بشأن الآية الكريمة الأولى، على جهة الخصوص، نودّ أن نقف عند بعض الألفاظ.

وأوّل ما نودّ الوقوف عنده جملة ﴿يرمون﴾ والمعروف أنّ عمليّة الرّمي إنّما تتمّ حينما يكون الهدف بعيداً. وفي مجال المحسوسات يخطيء الرّامون كثيراً في

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ٦٣

(٢) القول الآخر: إعلان القاذف التّوبة على رءوس الأشهاد.

(٣) تفسير الطّبري ١٨/ ٦٤.

(٤) تفسير الطّبري ١٨/ ٦٤.

(٥) تفسير الطّبري ١٨/ ٥٩.

إصابة الهدف إن لم يكونوا مهيّئين لعمليّة الرّمي ومستعدّين لها. وفي مجال المعنويات، وبخاصّةٍ في مثل هذه القضيّة الخطيرة، ما يقال عن عمليّة رمي المحصنات أخطر من عمليّة إصابة الهدف في مجال المحسوسات. إنّ المفروض فيمن يجرؤ على عمليّة قذف المحصنات أن يكون عالماً أنّه يقدم على عمل خطير، أهون منه بكثير، الرّمي بالسّهام، أو بالذّخيرة الحيّة، بقصد إصابة الهدف. وكأنّ الّذي يكاد يجرؤ على عمليّة قذف امرأة بالزّنا هو الّذي يكاد يكون قد بلغ مرتبة اليقين من استطاعة القول والفعل.

ونودّ أن نقف كذلك عند لفظة: ﴿المحصنات﴾ وهي هنا بمعنى العفيفات. ويلاحَظُ أنّ الآية الكريمة لا ترضى بغير هذه اللّفظة بديلاً، ولا يجيء هنا سوى اللّفظة الّتي تصف المقذوفة بالزّنا والمرميّة به بأنّها طاهرة الذّيل عفيفة الفرج. والى أن يثبت غير ذلك هنالك الكثير من الحواجز الّتي على القاذف أن يتخطّاها بنجاحٍ، وإلاّ كان جزاؤه الجلد ثمانين جلدة، إضافةً إلى عدم قبول شهادته ووصفه بالفسق حتّى يتوب ويعمل صالحاً.

ونودّ أن نقف كذلك عند جملة: ﴿ثمّ لم يأتوا﴾ وقد تبيّن بفضل الله تعالى من الاستقصاء أنّ جملة «أتى» الّتي تقترن عادةً في القرآن الكريم بجملة: «جاء» تبيّن أنّ جملة: «أتى» لا تستعمل في القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد الزّمانيّ أو المكاني أو المعنويّ النّفسيّ، وأنّ جملة: «جاء» لا تستعمل في القرآن الكريم إلاّ دليلاً على القرب الزّمانيّ أو المكانيّ أو المعنويّ النّفسيّ. وإنّ جملة: ﴿لم يأتوا﴾ هنا تومىء إلى بعد احتمال الإتيان بأربعة شهداء. ويؤيّد بعد احتمال الإتيان بالشّهود كون القضيّة لا تتمّ في العادة إلاّ في منتهى السّرّيّة، وكون عدد الشّهود أربعة. ويلاحظ أنّه في كلّ المواطن المشابهة في القرآن الكريم إنّما تستعمل هذه الجملة الّتي تدلّ على البعد. وصفة البعد هذه لها أكثر من دلالة، ومنها بعد احتمال تورّط كلّ نفسٍ حرّةٍ أبيّة في صغار جريمة الزّنا من ناحية، وبعد احتمال الإتيان بالعدد المطلوب من الشّهود في حالة القذف بالزّنا من ناحيةٍ أخرى. وكلّ

دلائل البعد تهدف إلى إيصاد كلّ الأبواب الّتي تـهبّ منها الأعاصير وتحدث البلبلة في المجتمع. وإنّ كلّ هذه الضّوابط في الآية الكـريمة تحدّ من عمليّة القذف بحيث لا تكاد توجد إلاّ مع غلبة اليقـين ووجود الشّهود وإلاّ كان العقاب رادعاً، والجزاء أليما.

وبشأن حرف العطف: «ثمّ» من جملة: ﴿ثمّ لم يأتوا﴾ من المعروف أنّ هذا الحرف يدلّ في الأصل على التّرتيب مع التـراخي. ومعنى ذلك نّ ثمّة فترةً زمنيّةً، تطول أو تقصر، فاصلةً بين المعطوف والمعـطوف عليه. وهذا الفاصل الزّمنيّ المائل إلى الطّـول، والّذي يفيده حـرف العطف: «ثمّ» أساسـاً في المحسوسات، يـفيده حرف العطف: «ثمّ»، أحياناً، فاصلاً، ولكـنّه معنويّ، ومائلاً إلى الطّول كذلك، أو إلى البعد المعنويّ، ودالاً على عدم التّوافق بين المقدّمة والنتيجة المترتبة على تلك المقدّمة مـنطقياً. ومن الأمثـلة على البعد المعـنويّ وعدم الانسجام أو التّـناغم بين المقدّمة والنّتيجة أنّ مشركي مكّة يعـترفون بأنّ الله تعالى هو خالق كلّ شيءٍ ثمّ هم بعد ذلـك يشركون مـع الله تعالى غيـره. وإلى هذا المعـنى أشارت الآية الـكريمة الأولى من سورة الأنعام. قال تعالـى: ﴿الحمد لله الّذي خلق السّماوات والأرض وجعل الظّلمات والـنّور. ثمّ الّذين كفروا بربّهم يعدلون﴾. ومن الـبيّن أنّ التّرتيب مع التّراخي الّذي يفيده حرف العطـف: «ثمّ» أساساً هو المنطلق لإفادة هذا الحرف هنا البعد المنطقيّ بين المقدّمة وبين النّتيجة المترتّبة عليها.

ومن أجل أن نتـبيّن المعاني الّتي يمـكن أن يفيدها حرف العـطف: «ثمّ» في القول: ﴿والّذين يرمون المحصنات ثمّ لم يأتوا بأربعة شهداء﴾ نحن بحاجة الى أن نقارن بـين حرف العطف: «ثـمّ» الّذي جاء هنـا، وبين حرف العطـف الأصليّ، الواو، الّذي جاء في حـقّ الأزواج في الآية الكريمة السّادسة من السّورة الكريمة. قال تعالـى: ﴿والّذين يرمون أزواجهم ولم يـكن لهم شهداء إلاّ أنفـسهم﴾ إنّ بين الزّوجين في هذه الحال الملاعـنة كما سيأتي. أمّا الّذين يرمون العفـيفات من النّساء بالزّنا فإنّ الأمر أشقّ في حقّهم. إنّ عليهم مـا يكاد يكون شبه مستحيل، بأن يأتوا

بأربعة شهود عدول. لقد تبيّناً أنّ هذه المشقّة في الحصول على الشّهود قد أومأت إليها جملة: ﴿لم يأتوا﴾ قد مُهِّد لها بحرف العطف: ﴿ثمّ﴾ الّذي يدلّ على البعد المعنويّ، المبنيّ على إفادة حرف العطف: «ثمّ» في الأساس البعد الزّمنيّ، أو التّرتيب مع التّراخي.

وهكذا يتبيّن أنّ كلّ لفظة من القول: ﴿يرمون المحصنات ثمّ لم يأتوا بأربعة شهداء﴾ تشير إلى نوعٍ من المشقّة. إنّ رمي المحصنات بالزّنا يكاد يكون ضرباً من المغامرة كالّذي يرمي صيداً، فقد يصيب وقد يخطيء. والمفروض في كلّ أنثى أنّها محصنةٌ عفيفةٌ طاهرة الذّيل، وإثبات غير ذلك غايةٌ في الصّعوبة. وهذه الصّعوبة مهّد لها حرف العطف: «ثمّ» الّذي يفيد هنا بُعْداً معنوياً. وقد تأكدّت الصّعوبة بجملة: ﴿لم يأتوا﴾ وقد تأكّد أنّ القرآن الكريم لا يستعمل هذه الجملة إلاّ دليلاً على البعد. ثمّ إنّ عدد الّذين يدلون بالشّهادة أربعة في هذه القضيّة الّتي لا تتمّ عادةً إلاّ في الخفاء. ثمّ إنّ الّذين يدلون بالشّهادة شهداء، قد بلغوا الغاية في الأهليّة لأداء الشّهادة، وفي الإحاطة بكلّ جوانب القضيّة الّتي يدلون فيها بالشّهادة، وفي الأمانة.

ولا يخفى أنّ هذه الضّوابط أنواعٌ من عوامل سلامة المجتمع المسلم في مجال الفضيلة والطّهر والعفاف..

إنّ الآية الكريمة الأولى تقرّر أنّ الذين يرمون العفيفات بالزّنا ثمّ لم يأتوا دليلاً على ذلك بأربعة شهود عدول فإنّ على الحاكم المسلم أن يجلد كلّ واحد ثمانين جلدة. وينهي الله تعالى الحكّام المسلمين أن يقبلوا لهم شهادةً أبداً، ويوصف أولئك بأنهم هم الفاسقون الخارجون عن الصّراط المستقيم.

وتستثني الآية الكريمة الأخرى الّذين تابوا من بعد جلدهم توبةً نصوحاً إلى الله تعالى وعملوا الصّالحات فإنّ الله سبحانه وتعالى غفورٌ لذنوبهم الّتي سألوا الله تعالى أن يغفرها، رحيمٌ بهم حينما أرشدهم الى التّوبة وقبلها منهم.

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ
فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾
وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟
عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ
﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾

سبب النزول

روى البخاريّ في صحيحه(١) عن ابن عبّاس أنّ هلال بن أميّة قَذَف امرأته عند النّبيّ ﷺ بشَريك بن سَحْماء، فقال النّبيّ ﷺ: البيّنة أو حدٌّ في ظهرك(٢) فقال: يارسول الله، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البيّنة؟ فجعل النّبيّ ﷺ يقول: البيّنة وإلاّ حدٌّ في ظهرك. فقال هلال: والّذي بعثك بالحقّ إنّي لصادق. فَلْيُنْزِلنّ الله ما يبرِّيء ظهري من الحدّ. فنزل جبريل وأنزل عليه: ﴿والذين يرمون أزواجهم﴾ فقرأ حتى بلغ: ﴿إن كان من الصّادقين﴾ فانصرف النّبيّ ﷺ فأرسل إليها. فجاء هلالٌ فَشَهِد، والنّبيّ ﷺ يقول: إنّ الله يعلم أنّ أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟ ثمّ قامت فَشَهِدَتْ. فلما كانت عند الخامسة وقّفوها وقالوا إنّها موجبة (٣) قال ابن عبّاس فتلكّأتْ ونكصت حتّى ظننّا أنّها تَرْجِع. ثمّ قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم، فمَضَتْ. فقال النّبيّ ﷺ: أبصِروها، فإن جاءت به أكحل العينين(٤) سابغ

---

(١) فتح الباري ٨/ ٤٤٩ حديث رقم ٤٧٤٧ وانظر صحيح مسلم ١٠/ ١٢٨

(٢) التّقدير: أمّا البيّنة وأمّا حدّ، فتح الباري ٨/ ٤٤٩

(٣) الموجبة: الّتي توجب عليك العذاب. تفسير الطبري ١٨/ ٦٦ أي توجب عليك عذاب الله تعالى، وهو أشدّ من عذاب النّاس. انظر تفسير الطّبري ١٨/ ٦٦.

(٤) رجلٌ أكْحَل: بيّن الكَحَل في العين بأن تسودّ مواضع الكُحْلِ خِلقة. اللّسان «كحل».

الأليتين(١) خَدَلَّج الساقين(٢) فهر لشَريك بن سحماء. فجاءت به كذلك. فقال النّبيّ ﷺ: لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن.

وشاء الله سبحانه وتعالى أن يكثر حديث فريقٍ من الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم، عن العمل لو رأى زوجٌ رجلاً يطأ زوجته. فالبخاريّ - مثلاً - روى في صحيحه(٣): «عن سهل بن سعد: أنّ عويمراً(٤) أتى عاصم بن عَدِيّ، وكان سيّد بني عجلان فقال: كيف تقولون في رجلٍ وجد مع امرأته رجلاً. أيقتله فتقتلونه، أم كيف يصنع؟ سل لي رسول الله ﷺ عن ذلك. فأتى عاصمٌ النّبي ﷺ فقال: يارسول الله. فكره رسول الله ﷺ المسائل، فسأله عويمرٌ فقال: إنّ رسول الله ﷺ كره المسائل وعابها. قال عويمر: والله لا أنتهي حتّى أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك. فجاء عويمرٌ فقال: يارسول الله، رجلٌ وجد مع امرأته رجلاً، أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟...».

وروى الطّبريّ (٥)عن ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما أنّ آيتي القذف الكريمتين السّابقتين لمّا نزلتا: «قال سعد بن عبادة: لهكذا أنزلت يارسول الله. لو أتيت لكاع(٦) قد تفخّذها رجلٌ لم يكن لي أن أهيجه ولا أحرّكه حتّى آتي بأربعة

---

(١) الأَلْية بالفتح: العَجيزة للنّاس وغيرهم، وما ركِب العَجُز من اللّحم والشّحم. اللّسان «ألا» وكلّ شيءٍ طال إلى الأرض فهو سابغ. اللّسان: «سبغ».

(٢) خدلّج السّاقين: عظيمهما. والخدلّجة، بتشديد اللّام كذلك: الرّيّاء الممتلئة الذّراعين والسّاقين. اللسان «خدلج».

(٣) فتح الباري ٨/ ٤٤٨ حديث رقم ٤٧٤٥.

(٤) عويمر بن أبيض العجلاني الّذي رمى زوجته. وكان لعانهما في شعبان سنة تسع من الهجرة حين قدم رسول الله ﷺ من تبوك. تهذيب الأسماء واللّغات للإمام النّووي ٢/ ٤١.

(٥) تفسير الطّبري ١٨/ ٦٥, ٦٦

(٦) لكاعٍ مثل قطامٍ: المرأة اللّئيمة والأَمَة اللّئيمة، انظر اللّسان «لكع». وجاء في فتح الباري ٨/ ٤٥: لو رأيت لكاعاً.

شهداء. فوالله ما كنت لآتي بأربعة شهداء حتّى يفرغ من حاجته. فقال رسول الله ﷺ: يامعشر الأنصار، أما تسمعون إلى ما يقول سيّدكم. قالوا: لا تلمه فإنّه رجلٌ غيور، ما تزوّج فينا قطّ إلاّ عذراء، ولا طلّق امرأةً له فاجترأ رجلٌ منّا أن يتزوّجها. قال سعد: يارسول الله بأبي وأمّي، والله إنّي لأعرف أنّها من الله وأنّها حقّ. ولكنّي عجبت لو وجدت لكاع قد تفخّذها رجلٌ لم يكن لي أن أهيجه ولا أحرّكه حتّى آتي بأربعة شهداء. والله لا آتي بأربعة شهداء حتّى يفرغ من حاجته. فوالله ما لبثوا إلاّ يسيراً حتّى جاء هلال بن أميّة من حديقة له فرأى بعينيه وسمع بأذنيه، فأمسك حتّى أصبح. فلمّا أصبح غدا على رسول الله ﷺ وهو جالسٌ مع أصحابه فقال: يارسول الله، إنّي جئت أهلي عشاءً فوجدت رجلاً مع أهلي، رأيت بعيني وسمعت بأذني. فكره رسول الله ﷺ ما أتاه به وثقل عليه جدّا، حتّى عُرِفَ ذلك في وجهه. فقال هلال: والله يارسول الله إنّي لأرى الكراهية في وجهك ممّا أتيتك به. والله يعلم أنّي صادق، وما قلت إلاّ حقّا، فإنّي لأرجو أن يجعل الله فرجا. قال: واجتمعت الأنصار فقالوا: ابتُلينا بما قال سعد. أيُجْلَدُ هلال بن أميّة وتبطل شهادته في المسلمين. فهمّ رسول الله ﷺ بضربه، فإنّه لكذلك يريد أن يأمر بضربه ورسول الله ﷺ جالسٌ مع أصحابه إذ نزل عليه الوحي، فأمسك أصحابه عن كلامه حين عرفوا أنّ الوحي قد نزل حتّى فرغ، فأنزل الله: ﴿والّذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلاّ أنفسهم﴾ إلى: ﴿أنّ غضب الله عليها إن كان من الصّادقين﴾ فقال رسول لله ﷺ: أبْشِرْ ياهلال، فإنّ الله قد جعل فرجا. فقال: قد كنت أرجو ذلك من الله. فقال رسول الله ﷺ: أرسلوا إليها. فجاءت. فلمّا اجتمعا عند رسول الله ﷺ قيل لها فكذّبت فقال رسول الله ﷺ: إن الله يعلم أنّ أحدكما كاذب، فهل منكما تائب. فقال هلال: يارسول الله، بأبي وأمّي لقد صَدَقْتُ وما قُلْتُ إلاّ حقّا. فقال رسول الله ﷺ: لاعنوا بينهما. قيل لهلال: باهلال اشهد: فشهد أربع شهادات بالله إنّه لمن الصّادقين. فقيل له الخامسة: ياهلال اتق الله فإنّ عذاب الله أشدّ من عذاب

النّاس، وإنّها الموجبة الّتي توجب عليك العذاب. فقال هلال: والله لا يعذّبني الله عليها كما لم يجلدني عليها رسول الله ﷺ، فشهد الخامسة أنّ لعنة الله عليه إنّ كان من الكاذبين. ثمّ قيل لها اشهدي فشهدت أربع شهادات بالله إنّه لمن الكاذبين. فقيل لها عند الخامسة اتّقي الله فإنّ عذاب الله أشدّ من عذاب النّاس، وإنّ هذه الموجبة الّتي توجب عليك العذاب. فتلكّأت ساعةً ثمّ قالت: والله لا أفضح قومي، فشهدت الخامسة أنّ غضب الله عليها إن كان من الصّادقين. ففرّق بينهما رسول الله ﷺ وقضى أنّ الولد لها ولا يُدْعى لأبٍ ولا يُرْمَى ولدها».

وبعد نزول الآيات الكريمات في هلال بن أميّة صادف أن جاء: «عويمر فقال: يارسول الله، رجلٌ وجد مع امرأته رجلاً، أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبتك»(١).

تبيّن الآيات الكريمات كيفيّة الّلعان بين الزّوجين فتقرّر أنّ الأزواج الّذين يرمون زوجاتهم بالزّنا ولم يكن لهم شهداء يشهدون معهم سوى أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله العظيم إنّه لمن الصّادقين في قوله تدفع عنه حدّ القذف. والشّهادة الخامسة يعلن فيها أنّ لعنة الله تعالى عليه والّطرد من رحمته عزّ وجل إن كان من الكاذبين.

ويدفع عنها العذاب وعقوبة الزّنا وهي الرّجم الّذي وجب في حقها بشهادة زوجها عليها أن يشهد أربع شهادات بالله العظيم إنّه لمن الكاذبين. وتؤدي الشهادة الخامسة وتعلن فيها أن غضب الله تعالى نازلٌ عليها وحالٌّ بها إن كان من الصّادقين. ويفرّق بينهما فلا يجتمعان أبداً ويلحق الولد بأمّه(٢) ثمّ جرت السّنة أنّ ابنها يرثها وترث ما فرض الله لها(٣).

---

(١) فتح الباري ٨/ ٤٤٨ حديث رقم ٤٧٤٥ وانظر فتح الباري ٨/ ٤٥٠.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٦٧.

(٣) تفسير الطّبري ١٨/ ٦٧ وحديث رقم ٤٧٤٦ فتح الباري ٨/ ٤٤٨.

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأنّ الله توّابٌ حكيم: ولولا فضل الله عليكم أيّها النّاس ورحمته بكم وأنّه عوّادٌ على خلقه بلطفه وطَوْله، حكيمٌ في تدبيره إيّاهم وسياسته لهم، لعاجلكم بالعقوبة على معاصيكم، وفضح أهل الذّنوب منكم بذنوبهم(١).

تقرّر الآية الكريمة أنّه لو لا فضل الله تعالى علينا نحن المسلمين بإرشادنا إلى معالم ديننا، ولو لا رحمة الله تعالى الواسعة الّتي شملتنا ففتحت باب التّوبة لنا، ولو لا أنّ الله تعالى كثير القبول لتوبة عباده الحكيم في أحكامه وفي كلّ شيء، لعاجلنا عزّ وجلّ بالعقوبة، ولأخذنا أخذ عزيزٍ مقتدر.

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٦٨

(٢)
(دروسٌ من حادثة الإفك)
الآيات (١١ـ٢٠)

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾

ممّا جاء في سبب نزول عشر آياتٍ كريمات تبدأ بهذه الآية الكريمة حديثٌ طويلٌ في صحيح البخاريّ، وهو ممّا اتّفق عليه الإمامان الجليلان البخاريّ ومسلم. ونحن نذكر الحديث كما جاء في صحيح البخاريّ ونكتفي بشرح ما ينبغي شرحه في الهامش بإيجاز أملاً في عموم الفائدة بإذن الله تعالى.

روى البخاريّ في صحيحه (١) عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزُّبير، وسعيد بن المسيِّب، وعلقمة بن وقّاص، وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود عن حديث عائشة رضي الله عنها زوج النّبيّ ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرّأها الله ممّا قالوا. وكلٌّ حدّثني طائفةً من الحديث، وبعض حديثهم يصدّق بعضا، وإن كان بعضهم أوعى له من بعض(٢) الّذي حدّثني عروة عن عائشة رضي الله عنها أنّ عائشة رضي الله عنها زوج النّبيّ ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه، فأيّتهنّ خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه. قالت عائشة فأقرع بيننا في غزوةٍ(٣) غزاها فخرج سهمي، فخرجت

(١) فتح الباري ٨/ ٤٥٢ حديث رقم ٤٧٥٠.

(٢) إشارةٌ إلى أنّ هؤلاء الأربعة أميز في سياق الحديث من بعض من جهة حفظ أكثره، لا أنّ بعضهم أضبط من بعض مطلقاً. فتح الباري ٨/ ٤٥٧.

(٣) هي غزوة بني المصطلِق من خزاعة فتح الباري ٨/ ٤٥٨ والمصطلِق بكسر اللّام لقب جَذيمة بن سعد بن عَمْرو، سمّي لحسن صوته، وكان أول من غنّى في خزاعة القاموس: «صلق» وغزوة بني المصطلق هي غزوة لربيع تفسير القرطبي ٤٥٩٠.

مع رسول الله ﷺ بعدما نزل الحجاب، فأنا أُحْمَل في هودجي وأُنْزَلُ فيه. فَسِرْنا حتّى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقَفَلَ ودنونا من المدينة قافلين آذَنَ(١) ليلةٌ بالرّحيل. فقمت حين آذنوا بالرّحيل فمشَيْت حتّى جاوزت الجيش. فلمّا قضيت شأني (٢) أقبلت الى رحلي، فإذا عِقْدٌ لي من جَزْع(٣) أظفار(٤) قد انقطع. فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه. وأقبل الرّهط الّذين كانوا يَرْحَلون لي فاحتملوا هودجي (٥) فرحلوه(٦) على بعيري الّذي كنت ركبت وهم يحسبون أنّي فيه. وكان النّساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهُنّ اللّحم، إنّما يأكلن العُلْقة(٧) من الطّعام. فلم يستنكر القوم خفّة الهودج حين رفعوه. وكنت جاريةً حديثة السّنّ، فبعثوا(٨) الجمل وساروا. فوجدت عقدي بعدما استمرّ الجيش(٩) فجئت منازلهم وليس بها داعٍ ولا مجيب. فَأَمَمْت(١٠) منزلي الّذي كنت به. وظننت أنّهم سيفقدوني فيرجعون إليّ. فبينا أنا جالسةٌ في منزلي غلبتني عيني فنمت. وكان

---

(١) آذن بالمدّ والتّخفيف أعلم. فتح ٨/ ٤٥٨.

(٢) فرغت من قضاء حاجتي فتح ٨/ ٤٥٩.

(٣) من جزع بفتح الجيم وسكون الزّاي بعدها مهملة: خرزٌ معروفٌ في سواده بياضٌ كالعروق. واحدة جَزْعة، بسكون الزّاي فتح ٨/ ٤٥٨و٤٥٩.

(٤) أظفار. قال ابن قتيبة: جزعٌ ظفاريّ. فأمّا ظفار بفتح الظّاء المعجمة ثمّ فاء بعدها راء مبنيّة على الكسر فهي مدينةٌ باليمن. فتح ٨/ ٤٥٩.

(٥) يرحلون لي: يضعون الرّحل لي. والرّحل هو الّذي يوضع على ظهر البعير ثمّ يوضع الهودج فوقه. فتح ٨/ ٤٥٩.

(٦) فرحلوه: أي وضعوه وفيه تجوّز لأن الهودج يوضع فوق الرّحل فتح ٨/ ٤٥٩.

(٧) العلقة بضمّ العين المهملة وسكون اللّام ثمّ قاف أي القليل فتح ٨, ٤٦٠.

(٨) فبعثوا الجمل: أي أثاروه فتح ٨/ ٤٦٠.

(٩) استمرّ الجيش: أي ذهب ماضياً فتح ٨/ ٤٦٠.

(١٠) فأممت منزلي، بالتّخفيف، أي قصدت فتح ٨/ ٤٦١

صفوان بن المعطّل(١) السُّلمي(٢) ثمّ الذكواني(٣) من وراء الجيش (٤)فأدلج(٥) فأصبح عند منـزلي. فرأى سواد إنسانٍ نائم (٦) فأتاني فعـرفني حين رآني. وكان يراني قبل الحجاب(٧) فاستيقظت باسـترجاعه حين عرفني(٨) فخمّرت وجهي(٩) بجلبابي(١٠) والله ما كلّمني كلمةً ولا سمعت منه كلمةً غير استرجاعه، حتّى أناخ راحلته فوطيء على يديها(١١) فركبتها. فانطلق يقود بي الرّاحلة حتّى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين(١٢) في نحر الـظّهيرة(١٣) فَهَلَك من هَلَك(١٤)وكان الذي

---

(١) بفتح الطّاء المهملة المشدّدة فتح ٨/ ٤٦١

(٢) بضمّ المهملة فتح ٨/ ٤٦١

(٣) منسوبٌ إلى ذكوان بن ثعلبـة بن بُهْثة، بضمّ الموحّدة وسكون الهاء بعدها مثلـثة، ابن سُليم. وذكوان بطن من سُليم. وكان صحابيّاً فـاضلاً. وقد ذكر ابن إسحاق أنّه استشهد في غزاة أرمينيّة فـي خلافة عمر سنة تسع عشرة. وقيل بل عاش الى سنة أربع وخمسين فاستشهد بأرض الرّوم في خلافة معاوية. فتح ٨/ ٤٦١.

(٤) كان صفوان إذا رحل الجيش قام يصلّي حتّى الصّبح ليظهر لـه ما يسقط من الجيش ممّا يخفيه اللّيل. فتح ٨/ ٤٦١ و٤٦٢ وانظر تفسير القرطبي ٤٥٩١.

(٥) أدْلَجَ وادّلَجَ سار من آخر الليل. فتح ٨/ ٤٦٢.

(٦) السّواد يطلق على الشّخص، أيّ شخصٍ كان. فتح ٨/ ٤٦٢.

(٧) كان الحجاب في ذي القعدة من سنة خمس. فتح ٨/ ٤٦٢.

(٨) أي بقوله: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. رافعاً بالاسترجاع صوته. فتح٨/ ٤٦٣.

(٩) فخمّرت وجهي: فغطّيت وجهي. فتح ٨/ ٤٦٣.

(١٠) بجلبابي: بالثّوب الّذي كان عليّ. فتح ٨/ ٤٦٣

(١١) أي ليكون أسهل لركوبها ولا يحتاج إلى مسّها عند ركوبها فتح ٨/ ٤٦٣

(١٢) موغرين بضّم المـيم وكسر الغين المعجمة والرّاء المـهملة أي نازلين في وقت الوغْرة بـفتح الواو وسكون الغين وهي شدّة الحرّ، لمّا تكون الشّمس في كبد السّماء فتح ٨/ ٤٦٣

(١٣) نحر الظّهيرة أوّلها وهو وقت شدّة الحرّ، ونحر كلّ شيء أوّله. كأنّ الشّمس لمّا بلغت غايتها في الارتفاع كأنّها وصلت إلى النّحر الّذي هو أعلى الصّدر فتح ٨/ ٤٦٤.

(١٤) أشارت بذلك إلى الّذين تكلّموا بالإفك وخاضوا في ذلك. فتح ٨/ ٤٦٤.

تولّى الإفك عبدالله بن ابيّ ابن سلول(١) فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً (٢) والنّاس يُفيضون (٣) في قول أصحاب الإفك، ولا أشعر بشيءٍ من ذلك. وهو يريبني (٤)في وجعي أنّي لا أعرف من رسول الله ﷺ اللّطف الّذي كنت أرى منه حين أشتكي(٥) إنّما يدخل عليّ رسول الله ﷺ فيسلّم ثمّ يقول: كيف تِيكُم(٦) ثمّ ينصرف، فذاك الذي يريبني ولا أشعر بالشّرّ، حتّى خَرَجْتُ بعد ما نَقِهت(٧) فَخَرَجَتْ معي أمّ مِسْطح(٨) قِبَل المناصع(٩) وهو متبرّزنا(١٠) وكنّا

---

(١) رأس المنافقين. وسلول أمّه. ونزل في ذمّه آياتٌ كثيرة مشهورة. وتوفّي في زمن رسول الله ﷺ، وصلّى عليه وكفّنه في قميصه قبل النّهي عن الصّلاة على المنافقين. وإنّما صلّى عليه لكرامة ابنه عبدالله الصّالح الصّحّابيّ الجليل، وإحساناً وكرماً وحلما. تهذيب الأسماء واللّغات ١/ ٢٦٠.

(٢) تريد أنّها رضي الله تعالى عنها مرضت شهراً. فتح ٨/ ٤٦٤.

(٣) بضمّ أوّله أي يخوضون، من أفاض في قولٍ إذا أكثر منه فتح ٨/ ٤٦٥.

(٤) بفتح أوّله من الرّيب. ويجوز الضّم من الرّباعي، يقال رابه وأرابه. فتح ٨/ ٤٦٥.

(٥) أي حين أمرض. فتح ٨/ ٤٦٥

(٦) بالمثّناه المكسورة وهي للمؤنّث مثل ذاكم للمذكّر. فتح ٨/ ٤٦٥.

(٧) بفتح القاف وقد تكسر والأوّل أشْهَر. والنّاقِه بكسر القاف الّذي أفاق من مرضه ولم تتكامل صحّته. فتح ٨/ ٤٦٥.

(٨) مِسْطح بن أثاثه هو بكسر الميم وإسكان السّين. وأثاثه بهمزة مضمومة ثمّ ثاء مثلثة مكرّرة. وهو أبو عبّاد وقيل أبو عبدالله مسطح بن أثاثة بن عبّاد بن عبدالمطّلب بن عبد مناف بن قصيّ القرشيّ المطّلبيّ. ويقال اسمه عوف ومسطح لقبٌ له تهذيب الأسماء واللّغات ٢/ ٨٩ والمسطح عودٌ من أعواد الخباء فتح ٨/ ٤٦٥ واسم أمّ مسطح سلمى بنت أبي رُهْم بضمّ الرّاء وسكون الهاء ابن المطّلب ابن عبد مناف. وأمّها رائطة بنت صخر بن عامر بن كعب خالة أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه. شهد مسطح بدراً وقيل شهد صفّين مع عليّ فعلى هذا قالوا مات سنة سبع وثلاثين تهذيب ٢/ ٨٩ وفتح ٨/ ٤٦٥.

(٩) جهة المناصع فتح ٨/ ٤٦٥ والمناصع المواضع الّتي يُتخلّى فيها لبولٍ أو غائطٍ أو لحاجة، الواحد مَنْصَع، لأنّه يُبْرَز أليها ويُظْهر. لسان: «نصع» والمناصع صعيدٌ أفيح خارج المدينة. فتح ٨/ ٤٦٥.

(١٠) بفتح الرّاء قبل الزّاي موضع التّبرّز وهو الخروج إلى البراز وهو الفضاء. فتح ٨/ ٤٦٥.

لا نخرج إلاّ ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن تُتَّخذ الكُنُف(١) قريباً من بيوتنا. وأَمْرُنا أَمْرُ العَرب الأُوَل(٢) في التّبرّز قِبَل الغائط(٣) فكنّا نتأذّى بالكنف أن نتّخذها عند بيوتنا فانطلقت أنا وأمّ مِسْطح، وهي ابنة أبي رُهم بن عبد مناف، وأمّها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكرٍ الصّدّيق، وابنها مِسْطح، بن أُثاثة. فأقبلتُ أنا وأمّ مِسْطح قِبَل بيتي وقد فَرَغنا من شأننا، فعثرت أمّ مسطح في مِرْطها(٤) فقالت: تَعِس(٥) مسطح. فقلت لها: بئس ما قلتِ. أتسبّين رجلاً شهد بدراً؟ قالت أَيْ(٦) هَنْتاه(٧) أولَم تسمعي ما قال؟ قالت: قلت: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك(٨) فازددت مرضاً على مرضي. فلمّا رجعت إلى بيتي ودخل عليّ رسول الله ﷺ، تعني سلّم ثمّ قال: كيف تيكم؟ فقلت: أتأذن لي أن آتي أبويّ. قالت: وأنا حينئذٍ أريد أن أستيقن الخبر من قِبَلهما. قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ، فجئت أبويّ فقلت لأمّي: يا أُمّتاه ما يتحدّث النّاس؟ قالت: يا بنيّة هوّني عليك،

---

(١) بضمّتين جمع كنيف وهو السّاتر. والمراد به هنا المكان المتّخذ لقضاء الحاجة. فتح ٨/ ٤٦٥.

(٢) بضمّ الهمزة وتخفيف الواو صفة العرب. فتح ٨/ ٤٦٥.

(٣) المنخفض من الأرض حيث تُقْضى الحاجة لأنّه أستَر لسان: «غوط»

(٤) بكسر الميم، وهو كلّ ثوبٍ غير مخيط لسان: «مرط».

(٥) بفتح المثّناة وكسر العين المهملة وبفتحها أيضاً بعدها سين مهملة، أي كُبَّ لوجهه أو هلك ولزمه الشرّ أو بُعْد. أقوال. فتح ٨/ ٤٦٦.

(٦) أيْ حرف نداءٍ للبعيد وقد يستعمل للقريب حين ينزّل منزلة البعيد. فتح ٨/ ٤٦٦.

(٧) هنتاه بفتح الهاء وسكون النّون وقد تفتح بعدها مثنّاه وآخره هاءٌ ساكنة وقد تضمّ، أي هذه وقيل امرأة وقيل بَلْهَى. كأنّها نسبتها إلى قلّة المعرفة بمكائد النّاس. وهذه اللّفظة تختصّ بالنّداء. وهي عبارةٌ عن كلّ نكرة فتح ٨/ ٤٦٦.

(٨) الإفك: الكذب والبهتان. تفسير الطّبري ١٨/ ٦٨.

فوالله لقلّما كانت امرأةٌ قطّ وضيئةٌ(١) عند رجلٍ يحبّها ولها ضرائر(٢) إلاّ أكثرن عليها. قالت: فقلت: سبحان الله، أو لقد تحدّث النّاس بهذا؟ قالت فبكيت تلك اللّيلة حتّى أصبحتُ لا يرقأُ (٣) لي دمع، ولا أكتحل بنومٍ حتى أصبحت أبكي. فدعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهما حين استلبث الوحيُ (٤) يستأمرهما(٥) في فراق أهله. قالت: فأمّا أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالّذي يعلم من براءة أهله، وبالّذي يعلم لهم في نفسه من الوُدّ فقال: يارسول الله، أهلك(٦) وما نعلم إلاّ خيراً. وأمّا عليّ بن أبي طالب فقال: يارسول الله، لم يضيّق الله عليك والنّساء سواها كثير، وإن تسأل الجاريةَ تَصْدُقْك(٧) قالت فدعا رسول الله ﷺ بريرة (٨) فقال أَيْ بريرة هل رأيت من شيء يَريبك؟ قالت بريرة: لا والّذي بعثك بالحقّ، إن(٩) رأيت عليها أمراً أَغْمِصُهُ (١٠) عليها أكثر من أنّها جاريةٌ حديثة السّنّ تنام عن عجين أهلها فتأتي

---

(١) بوزن عظيمة من الوضاءة أي حسنة جميلة فتح ٨/ ٤٦٧

(٢) جمع ضَرّة. وقيل للزّوجات ضرائر لأنّ كل واحدةٍ يحصل لها الضّرر من الأخرى بالغَيْرة فتح ٨/ ٤٦٧ والضَّرّة بفتح الضّاد لسان: «ضرر»

(٣) بالقاف بعدها همزة أي لا ينقطع فتح ٨/ ٤٦٧

(٤) بالرّفع أي طال لبث نزوله، وبالنّصب أي استبطأ النّبيّ ﷺ نزوله. فتح ٨/ ٤٦٨.

(٥) يستشيرهما.

(٦) أهلك بالرّفع أي هم أهلك، أي العفيفة اللّائقة بك فتح ٨/ ٤٦٨.

(٧) قال النّووي: رأى عليّ أنّ ذلك هو المصلحة في حقّ النّبيّ ﷺ واعتقد ذلك لما رأى من انزعاجه، فبذل جهده في النّصيحة لإرادة راحة خاطره ﷺ فتح ٨/ ٤٦٨.

(٨) بفتح الموحّدة وكسر الرّاء فتح ٨/ ٤٦٩ مولاة عائشة رضي الله عنها. قيل كانت لعتبة بن أبي لهب. روت حديثاً واحداً عن رسول الله ﷺ تهذيب الأسماء واللّغات ٢/ ٣٣٢.

(٩) ما رأيت عليها. فتح ٨/ ٤٧٠.

(١٠) بغين معجمة وصاد مهملة أي أعيبه. فتح ٨/ ٤٧٠.

الدّاجن فتأكله (١) فقام رسول الله ﷺ فاستَعْذَرَ (٢) يومئذ من عبدالله بن أبيّ ابن سلول. فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: يا معشر المسلمين، من يَعْذرني (٣) من رجلٍ قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً. ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاّ خيراً. وما كان يدخل على أهلي إلاّ معي. فقام سعدُ بن مُعاذٍ الأنصاريّ (٤) فقال: يارسول الله، أنا أعذرك منه. إن كان من الأوس ضربت عنقه. وإن كان من إخواننا من الخزرج أَمَرْتنا ففعلنا أمرك. قالت: فقام سعد بن عُبادة، وهو سيّد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته (٥) الحميّة، فقال لسعد: كذبتَ لعمرُ الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله. فقام أُسَيد بن حُضير (٦) وهو ابن عمّ سعد بن مُعاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعَمْرُ الله لنقتلنّه، فإنّك منافقٌ تجادل عن المنافقين. فتثاور (٧) الحيّان الأوس والخزرج حتّى هموّا أن يقتتلوا ورسولُ الله ﷺ قائمٌ على المنبر. فلم يزل رسول الله ﷺ يخفّضهم (٨) حتّى سكتوا وسكت. قالت: فمكثت يومي ذلك لا يرقأ (٩) لي دمعٌ ولا أكتحل بنوم. قالت: فأصبح أبواي عندى وقد بكَيْتَ ليلتين ويوماً لا

(١) الدّواجن، بدالٍ مهملة ثمّ جيم: الشّاة الّتي تألف البيت ولا تخرج إلى المرعى. وقيل هي كلّ ما يألف البيوت مطلقاً شاةً أو طيراً. فتح ٨/ ٤٧٠.

(٢) أي طلب من يعذره منه أي ينصفه. فتح ٨/ ٤٧٠.

(٣) من ينصرني، والعذير: النّاصر. فتح ٨/ ٤٧٠.

(٤) هو سيّد الأوس.

(٥) احتملته بمهملة ثمّ مثناة ثمّ ميم أي أغضبته، وفي رواية: اجتهلته، بجيم ثمّ مثنّاة ثمّ هاء أي حملته على الجهل انظر فتح ٨/ ٤٧٠ والحميّة: الغضب والأنَفَة لسان «حما».

(٦) بالتّصغير فيه وفي أبيه فتح ٨/ ٤٧٤ ويسمّى أسيد الكامل شهد العقبة الثّانية وكان أحد النّقباء الاثني عشر شهد أحداً والخندق والمشاهد كلّها توفّي سنة ٢٠. الأعلام ١/ ٣٠٣.

(٧) بمثنّاه ثمّ مثلّثة: تفاعل من الثّورة. فتح ٨/ ٤٧٤

(٨) فلم يزل يسكّنهم ويهوّن عليهم الأمر لسان: «خفض»

(٩) لا ينقطع فتح ٨/ ٤٦٧.

أكتحل بنومٍ ولا يرقأ لي دمعٌ يظنّان أنّ البكاء فالقٌ كَبدي. قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذَنَتْ عليّ امرأةٌ من الأنصار فأذنتُ لها، فجلست تبكي معي. قالت: فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلّم ثمّ جلس. قالت: ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً لا يوحي إليه في شأني. قالت: فتشهّد رسول الله ﷺ حين جلس ثمّ قال: أمّا بعدُ، ياعائشة فإنّه قد بلغني عنكِ كذا وكذا. فإن كنتِ بريئة فسيبرّؤك الله، وإن كنت ألممت بذنبٍ فاستغفري الله وتوبي اليه، فإنّ العبد إذا اعترف بذنبه ثمّ تاب إلى الله تاب الله عليه. قالت: فلّما قضى رسول الله ﷺ مقالته قَلَص دمعى(١) حتّى ما أُحسّ منه قَطْرة. فقلت لأبي أَجِبْ رسول الله ﷺ فيما قال. قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ(٢) فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. قالت فقلت وأنا جاريةٌ حديثة السّنّ لا أقرأ كثيراً من القرآن: إنّى والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقرّ في أنفسكم وصدّقتم به. فلئن قلت لكم إنيّ بريئة - والله يعلم أنّي بريئة - لا تصدقونني بذلك. ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أنّي منه بريئة - لتصدّقنّي. والله ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف(٣) قال(٤): ﴿فصبرٌ جميلٌ والله المستعان على ما تصفون﴾ قالت: ثمّ تحوّلت فاضطجعت على فِراشى(٥) قالت وأنا حينئذٍ أعلم أنّي بريئةٌ وأنّ الله مبرّئي ببراءتي. ولكنْ والله ما كنت أظنّ أنّ الله مُنْزِلٌ في شأني وَحْياً يُتْلَى، ولَشَأْني في نفسي كان أحقر من أن يتكلّم الله فيّ بأمرٍ يُتْلَى، ولكنْ

---

(١) بفتح القاف واللام ثمّ مهملة أي استمسك نزوله فانقطع. ومنه قلص الظّلّ وتقلّص إذا شَمَر. قال القرطبيّ: سببه أنّ الحزن والغضب إذا أخذ أحدهما فُقد الدّمع لفرط حرارة المصيبة فتح ٨/ ٤٧٥.

(٢) إنّما أجابها أبوبكر بقوله: لا أدري لأنّه كان كثير الاتّباع لرسول الله ﷺ. فأجاب بما يطابق السّؤال في المعنى. ولأنّه كان يتحقّق براءتها لكنّه كره أن يزكّي ولده. فتح ٨/ ٤٧٥

(٣) يعقوب عليه الصّلاة والسّلام.

(٤) سورة يوسف ١٨.

(٥) زاد ابن جريج: وولّيت وجهي نحو الجدار. فتح ٨/ ٤٧٦.

كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النّوم رؤيا يبرّؤني الله بها. قالت: فوالله مارام[1] رسول الله ﷺ ولا خرج أحدٌ من أهل البيت حتّى أُنْزِل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء[2] حتّى إنّه ليتحدّر منه مثل الجُمان[3] من العَرَق وهو في يومٍ شاتٍ من ثِقَل القول الّذي يُنْزَل عليه. قالت: فلمّا سُرِّي[4] عن رسول الله ﷺ سُرّي عنه وهو يضحك، فكانت أوّلُ كلمةٍ تكلّم بها: يا عائشة، أمّا الله عزّ وجلّ فقد برّأك[5] فقالت أمّي: قومي إليه. قالت فقلت والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلاّ الله عزّ وجلّ. وأنزل الله: ﴿إنّ الّذين جاءوا بالإفك عصبةٌ منكم لا تحسبوه. . . .﴾ العشرة الآيات كلّها. فلمّا أنزل الله في براءتي قال أبوبكرٍ الصّدّيق رضي الله عنه، وكان يُنْفِق على مِسْطَح بن أُثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مِسْطَح شيئاً أبداً بعد الّذي قال لعائشة ما قال فأنزل الله[6] ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسَّعة أن يؤتوا أولى القُرْبى والمساكينَ والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا، ألا تحبّون أن يغفر الله لكم. والله غفورٌ رحيم﴾ قال أبوبكر: بلى والله، إنّي أحبّ أن يغفر الله لي فرجع إلى النّفقة الّتي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً. فقالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب ابنة جحش[7] عن أمري فقال: يازينب، ماذا عَلِمْتِ أو رأيت؟ قالت: يارسول الله،

---

(١) ما فارق. ومصدره الرَّيْم فتح ٨/ ٤٧٦

(٢) بضمّ الموحّدة وفتح الرّاء ثمّ مهملة ثمّ مدّ، هي شدّة الحُمّى. وقيل شدّة الكرب، وقيل شدّة الحرّ، ومنه برّح بي الهمّ إذا بلغ منّى غايته فتح ٨/ ٤٧٦

(٣) الجمان بضمّ الجيم وتخفيف الميم اللّؤلؤ فتح ٨/ ٤٧٦

(٤) بضمّ المهملة وتشديد الرّاء المكسورة أي كُشِف. فتح ٨/ ٤٧٧.

(٥) في رواية عمر بن أبي سلمة: فقال أبشري ياعائشة. فتح ٨/ ٤٧٧ وتفسير الطّبري ١٨/ ٧٥.

(٦) سورة النّور ٢٢

(٧) أي أمّ المؤمنين فتح ٨/ ٤٧٨.

أَحْمِي سمعي وبصري(١) ما علمت إلاّ خيراً. قالت - وهي الّتي كانت تساميني(٢) من أزواج رسول الله ﷺ فعصمها الله (٣) بالوَرَع(٤) وطَفِقت(٥) أختها حَمْنة(٦)تحارب لها(٧) فهلكت فيمن هلك (٨) من أصحاب الإفك.

إنّ الّذين جاءوا بالإفك: بالكذب والبهتان(٩)

عُصْبةٌ منكم: جماعةٌ منكم أيها النّاس(١٠)

لا تحسبوه شرّاً لكم بل هو خيرٌ لكم: لا تظنّوا ما جاءوا به من الإفك شرّا لكم عند الله وعند النّاس، بل ذلك خيرٌ لكم عنده وعند المؤمنين. وذلك أنّ الله يجعل ذلك كفّارةً للمرميّ به ويظهر براءته ممّا رمي به ويجعل له منه مخرجاً(١١).

والّذي تولّى كبره: والّذي تحمّل معظم ذلك الإثم والإفك منهم هو الّذي

---

(١) من الحماية فلا أنسب إليهما ما لم أسمع وأبصر. فتح ٨/ ٤٧٨

(٢) أي تعاليني من السّموّ . وهو العلوّ والارتفاع، أي تطلب من العلوّ والرّفعة والحُظْوة عند النّبي ﷺ ما أطلب . أو تعتقد أنّ الّذي لها عنده مثل الّذي لي عنده فتح ٨/ ٤٧٨

(٣) أي حفظها ومنعها. فتح ٨/ ٤٧٨ .

(٤) أي بالمحافظة على دينها ومجانبة ما تخشى سوء عاقبته. فتح ٨/ ٤٧٨ .

(٥) بكسر الفاء، وحُكي فتحها أي جعلت أو شرعت. فتح ٨/ ٤٧٨ .

(٦) بفتح المهملة وسكون الميم. وكانت تحت طلحة بن عبيدالله فتح ٨/ ٤٧٨ .

(٧) أي تجادل لها وتتعصّب وتحكي ما قال أهل الإفك لتنخفض منزلة عائشة وتعلو مرتبة أختها زينب. فتح ٨/ ٤٧٨ .

(٨) أي أَثِمَتْ مع من أَثِم فتح ٨/ ٤٧٨ .

(٩) تفسير الطّبري ١٨/ ٦٨

(١٠) تفسير الطّبري ١٨/ ٦٨

(١١) تفسير الطّبري ١٨/ ٦٨

بدأ بالخوض فيه[1] والكبر بالكسر مصدر الكبير من الأمور[2]. والّذي تولّى كبره عبدالله بن أبيّ ابن سلول[3] قالت عائشة: كان الذي تولى كبره الذي يجمعهم في بيته عبدالله بن أبيّ ابن سلول[4].

إن أول ما نود الوقوف عنده جملة: «جاءوا» من القول: ﴿إن الذين جاءوا بالافك عصبةٌ منكم﴾ وقد عرفنا أنّ جملة: «جاء» لا تُستَعْمَل في القرآن الكريم إلاّ دليلاً على القرب، وأنّ جملة: «أتى» لا تستعمل في القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد. إنّ هذه العصبة من القوم، والجماعة من النّاس، قد جاءوا فعلاً بأبلغ الكذب والبهتان في حقّ أمّ المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، فبرّأها الله تعالى ممّا قالوا. لقد بلغت الجراءة بهذه الجماعة شأواً بعيداً، وركبت شططاً كبيراً. وهذه الجماعة الّتي جاءت بذلك الجرم الشّنيع محدودة العدد بحمد الله تعالى في مجتمع المؤمنين الزّاخر. والآية الكريمة تخاطب المؤمنين الّذين رأوا في حادثة الإفك شراً مستطيراً وتقول لهم: لا تحسبوا الإفك شراً لكم بل هو خيرٌ لكم، لأنّ الله سبحانه وتعالى يجزي كلاً بما نوى وقال وعمل، ويثيب من ظُلِم، ويبيّن لكم أمور دينكم. إنّ لكلّ امريءٍ من تلك الجماعة خاض في حادثة الإفك عقابه الّذي يساوي ما اكتسب من الإثم. ويلاحظ أنّه يجيء مع ارتكاب الإثم جملة: «اكتسب» الّتي تشير الى المجهود الكبير الّذي يبذله الآثم لأنّه في سبيل تحقيق ما تسوّل له نفسه والشّيطان الرّجيم يتعدّى حدود الله تعالى ويتخطّى الكثير من النّواهي. أمّا الّذي تولّى كبر ذلك الإفك وتحمّل معظم ذلك الذّنب وهو عبدالله ابن أبيّ ابن سلول، فإنّ له عذاباً عظيماً مساوياً للذّنب العظيم الذي ارتكب.

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ٦٩

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ٦٩

(٣) تفسير الطّبري ١٨/ ٧٠ وتفسير القرطبي ٤٥٩٠ و٤٥٩٣

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٧٠

لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ
وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾

بأنفسهم: بإخوانهم (١) وقال بأنفسهم لأنّ أهل الإسلام كلّهم بمنزلة نفسٍ واحدة لأنّهم أهل ملّةٍ واحدة (٢).

تلتفت الآية الكريمة إلى المؤمنين وتعاتبهم لأنّ الواجب عليهم حينما يسمعون مثل هذا البهتان أن يظنّوا خيراً بإخوانهم في الإيمان وأن يبادروا جميعاً الى القول: إنّ هذا إفكٌ مبين وكذبٌ كبير وبهتانٌ عظيم. هلاّ فعلتم أيّها المؤمنون جميعاً ذلك بدلاً من أن ينساق بعضكم إلى الظّنّ السّيّء الآثم الّذي لا يغني من الحقّ شيئاً.

وليس بخافٍ أن هذا درسٌ للمؤمنين في كلّ زمانٍ ومكان، أن يظنّوا بإخوانهم خيراً، وأن يدفعوا التّهم.

وإنّ التّعبير عن الإخوة المؤمنين بلفظة الأنفس هنا يذكّرنا باللّفظة ذاتها الّتي جاءت في حقّ بني إسرائيل الّذين طُلب منهم في التّوراة ألاّ يُخرجوا أنفسهم من ديارهم وألاّ يقتلوا أنفسهم والمراد إخوانهم في العقيدة. جاء في سورة البقرة (٣) قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثمّ أقررتم وأنتم تشهدون. ثمّ أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم....﴾.

---

(١) تفسير القرطبي ٤٥٩٤

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ٧٧

(٣) الآية ٨٤ و ٨٥

لَّوْلَا
جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَآءِ فَأُولَٰٓئِكَ
عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾

شهداء: شهداء جمع شهيد. والشّهيد من أسماء الله عزّ وجلّ. قال أبو إسحاق: الشّهيد من أسماء الله، الأمين في شهادته. قال: وقيل الشّهيد الّذي لا يغيب عن علمه شيء. والشّهيد: الحاضر. وفعيل من أبنية المبالغة في فاعل (١).

تقول الآية الكريمة: هلاّ جاء الّذين جاءوا بالإفك دليلاً على صدقهم بأربعة شهداء، يكون كلّ واحدٍ منهم حاضراً القضيّة، محيطاً بأبعادها، أميناً في الإدلاء بما شاهد بعينيه اللّتين في رأسه.

وحيث إنّ الّذين جاءوا بالإفك لم يأتوا بالشّهداء، ويلاحظ مجيء جملة: ﴿لم يأتوا﴾ دليلاً على البُعْد والاستحالة، فأولئك عند الله تعالى هم الكاذبون حقّاً، ويستحقّون حدّ القذف ثمانين جلدة.

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾

ولولا فضل الله تعالى عليكم أيّها الخائضون في الإفك بترك معاجلتكم العقوبة في الدّنيا لعفوه عنكم، وفي الآخرة لرحمته بكم بقبول توبتكم، لمسكم فيما أفضتم فيه من الإفك عذابٌ عظيمٌ في الدّنيا قبل الآخرة.

---

(١) لسان العرب: «شهد»

إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

إذ تلقونه: حين تلقّونه بألسنتكم. و: «إذ» مِنْ صلة قوله ﴿لمسّكم﴾ ويعني بقوله: ﴿تلقّونه﴾ تتلقّون الإفك الّذي جاءت به العصبة من أهل الإفك فتقبلونه ويرويه بعضكم عن بعض. يقال: تلقّيت هذا الكلام عن فلان بمعنى أخذته منه(١).

وتحسبونه هيّناً: وتظنّون أنّ قولكم ذلك وروايتكم بألسنتكم وتلقّيكموه بعضكم عن بعض هيّنٌ سهلٌ لا إثم عليكم فيه ولا حرج(٢).

ولولا فضل الله تعالى عليكم ورحمته لمسّكم فيما خضتم فيه من الإفك عذابٌ عظيمٌ في الدّنيا قبل الآخرة حين تتلقّون الإفك وتتلقّفونه بألسنتكم دون تحكيم عقولكم، وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم، وذلك بإشاعتكم الفاحشة، وتظنّون أنّ ما تتقاذفه ألسنتكم وتلوكه أفواهكم من عظيم الكذب وكبير البهتان سهلٌ هيّن، وهو عند الله تعالى ذنبٌ عظيم، وإثمٌ كبير. وكيف لا يكون الأمر كذلك وإنّ فيه إيذاءً للمصطفى ﷺ ولأمّ المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، ابنة الصّدّيق رضي الله تعالى عنه.

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ٧٨

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ٧٩

وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ
قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ
﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾
وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾

ما يكون لنا أن نتكلّم بهذا: ما يحلّ لنا أن نتكلّم بهذا، وما ينبغي لنا أن نتفوّه به(١).

سبحانك: تنزيهاً لك ياربّ وبراءةً إليك ممّا جاء به هؤلاء(٢).

هذا بهتانٌ عظيم: حقيقة البهتان أن يقال في الإنسان ما ليس فيه. والغيبة أن يقال في الإنسان ما فيه. وهذا المعنى قد جاء في صحيح الحديث عن النّبيّ ﷺ(٣).

ويبيّن الله لكم الآيات: ويفصّل الله لكم حججه عليكم بأمره ونهيه ليتبيّن المطيع له منكم من العاصي(٤).

وهلاّ حين سمعتم أيها المؤمنون الإفك الّذي جاءت به جماعةٌ منكم قلتم ما ينبغي لنا أن نتكلّم بهذا ولا يحلّ لنا الخوض فيه. تنزيهاً لك ياربّنا وبراءةً إليك يا إلهنا ممّا جاء به هؤلاء. هذا بهتانٌ عظيمٌ وكذبٌ كبير.

إنّ الله سبحانه وتعالى يعظكم أن تعودوا لمثل هذا الإفك أبداً إن كنتم مؤمنين حقّاً بالله تعالى، وبالقرآن الكريم، وبرسول الإسلام العظيم.

إنّ الله سبحانه وتعالى يبيّن لكم آياته البيّنات وحججه الواضحات لتهتدوا بهديها. والله سبحانه وتعالى عليمٌ لا يخفي عليه شيءٌ في الأرض ولا في

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ٧٩

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ٧٩

(٣) تفسير القرطبي ٤٥٩٧

(٤) تفسير الطّبري ١٨/ ٧٩

السّماء، حكيمٌ في أقواله وأفعاله وقَدَرِه وأحكامه وكلّ شيء، فعليكم السّير في الصّراط المستقيم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا
فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

إنّ الّذين يحبّون أن تشيع فاحشة الزّنى في الّذين آمنوا وآفة الخنا، بإطلاق الشّائعات المغرضة، وقذف المحصنات الغافلات، وإذاعة الكلام العاهر، الّذي يغري بإتيان الكبائر، والعمل على تقويض الفضيلة، ونشر الرّذيلة، بكلّ الوسائل الدّنيئة، لهم عذابٌ أليمٌ في الدّنيا كحدّ القذف، وفي الآخرة في نار الجحيم. والله سبحانه وتعالى يعلم نيّة كلّ إنسان وقوله وعمله، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، وأنتم أيها النّاس لا تعلمون إلاّ ما شاء الله تعالى لكم أن تعلموه.

ولولا فضل الله تعالى عليكم ورحمته الواسعة الّتي شملتكم ولولا أن الله تعالى رءوفٌ بكم ورحيمٌ بقبول استغفاركم وتوبتكم لعاجلكم بالعقوبة في الدّنيا قبل الآخرة.

جاء في سورة النّساء في حثّ المؤمنين على الفضيلة والبعد عن الرّذيلة قول الحقّ جلّ وعلا(١): ﴿يريد الله ليبيّن لكم ويهديكُمْ سُنَن الّذين من قبلكم ويتوبَ عليكم. والله عليمٌ حكيم. والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الّذين يتّبعون الشّهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً. يريد الله أن يخفّف عنكم. وَخُلِق الإنسان ضعيفاً﴾.

(١) سورة النّساء ٢٦ ـ ٢٨

(٣)
(آيات تعقيبيّةٌ على حادثة الإفك)
(الآيات ٢١ ـ ٢٦)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ ٢١

لا تتّبعوا خطوات الشيطان: لا تسلكوا سبيل الشّيطان وطرقه ولا تقتفوا آثاره بإشاعتكم الفاحشة في الّذين آمنوا وإذاعتكموها فيهم وروايتكم ذلك عمّن جاء به(١).

بالفحشاء: بالزّنا(٢).

والمنكر: من القول(٣).

ما زكا منكم من أحدٍ أبداً: ما تطهّر منكم من أحدٍ أبداً من دَنَس ذنوبه وشركه(٤).

ولكنّ الله يزكّي من يشاء: ولكنّ الله يطهّر من يشاء من خلقه(٥).

يا أيّها الّذين آمنوا بالله تعالى ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمّدٍ ﷺ رسولاً، وبالقرآن الكريم منهجاً، لا تتّبعوا خطوات الشّيطان الرّجيم، ولا تسلكوا سبيله، واحذروا تزيينه لكم كلّ قبيح، ولا تأتمروا بأمره، فإنّ من يتّبع خطوات الشّيطان فإنّه يأمره بكلّ فاحشةٍ ومازاد قبحه بل فاق كلّ قبيح، وبكل ما ينكره الشّرع،

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ٨٠

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ٨٠

(٣) تفسير الطّبري ١٨/ ٨٠

(٤) تفسير الطّبري ١٨/ ٨٠

(٥) تفسير الطّبري ١٨/ ٨٠

والعقل الرّشيد، والنّفس السّويّة.

إنّه لولا فضل الله تعالى عليكم بإرشادكم الى معالم دينكم، ورحمته لكم بقبول توبتكم، ما تطهّر أحدٌ منكم أبداً من دنس الذّنوب والشّرك، ولكنّ الله تعالى يطهّر من يشاء تطهيره بهديه وتوفيقه. والله تعالى سميعٌ لكلّ قولٍ مهما خَفي، عليمٌ بكلّ نيّةٍ وفعل، مجازٍ على كلّ ذلك، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ.

وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾

ولا يأتل أولو الفضل منكم والسَّعة: ولا يحلف بالله ذوو التّفضّل وذوو الجدة(١) والألِيّة على وزن فعيلة اليمين. يقال: آلى يُولِي إيلاءً: حَلَف. وتألّى يتألّى تألّياً، وأتْلَى يأتلي ائتلاءً. وفي التّنزيل العزيز: ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم. . .﴾ أي ولا يحلف، لأنّ الآية نزلت في حلف أبي بكر ألاّ ينفق على مِسْطح(٢).

أن يؤتوا: ألاّ يعطوا(٣).

وليصفحوا: وليتركوا عقوبتهم على ذلك بحرمانهم ما كانوا يؤتونهم قبل ذلك(٤) وصَفْح الشّيء عَرْضه وجانبه كصفحة الوجه وصَفحة السّيف وصفحة الحجر. والصّفح ترك التّثريب وهو أبلغ من العفو، وقد يعفو الإنسان ولا يصفح.

---

(١) انظر تفسير الطّبري ١٨/ ٨١

(٢) انظر لسان العرب: «ألا»

(٣) تفسير الطّبري ١٨/ ٨١

(٤) تفسير الطّبري ١٨/ ٨١

وصفحت عنه أوليته منّي صفحةً جميلةً معرضاً عن ذنبه(١) وقولهم: صفح عنه، بمعنى أعرض عن ذنبه، لأنّه إذا أعرض عنه فكأنّه قد ولاّه صفحته وصُفْحه، بضمّ الضّاد، أيْ عُرضه وجانبه، وهو مَثَل(٢).

عرفنا من سبب نزول آيات الإفك أنّ أبابكر رضي الله تعالى عنه كان قد أقسم بالله تعالى العظيم ألاّ ينفق على ابن خالته(٣) مِسْطح بن أُثاثة الّذي كان قريباً له وفقيراً ومُهاجراً من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنّورة، بسبب ما قال عن عائشة رضي الله عنها. وبعدما نزلت هذه الآية الكريمة: «قال أبوبكر، بلى والله، إنّي أحبّ أن يغفر الله لي. فرجع إلى النّفقة الّتي كان ينفق عليه، وقال: والله لاأَنْزِعها منه أبدا»(٤).

ومعرفٌ أنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب فمع أنّ الآية الكريمة نزلت أساساً في أبي بكر رضي الله تعالى عنه فإنّها وراء ذلك تشمل كلّ من أقسم بالله تعالى ألاّ يفعل بِراً. إنّ عليه أن يكفّر ويبادر الى فعل البِرّ. وكأنّ الآية الكريمة تأخذ بسبب من هذه الآية الكريمة من سورة البقرة(٥) قال تعالى: ﴿ولا تجعلوا الله عُرْضةً لأيمانكم أن تبرّوا وتتّقوا وتصلحوا بين النّاس. والله سميعٌ عليم﴾.

إنّ الآية الكريمة تنهى أولى الفضل والجود والكرم والرّزق الواسع من الله تعالى عن أن يحلفوا بالله تعالى العظيم ألاّ يعطوا من مال الله تعالى الّذي آتاهم إيّاه ذوي القربى والفقراء والمهاجرين في سبيل الله تعالى. وقد كان مِسْطح بن أُثاثة قريباً لأبي بكر رضي الله تعالى عنه، وفقيراً، وأحد المهاجرين من مكّة المكرّمة إلى

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: «ضفح» ٢/ ٢٧٠ مكتبة الباز بمكّة والرّياض. الطّبعة الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٧م

(٢) معجم مقاييس اللّغة: «صفح» ٢/ ٢٩٣

(٣) الجلالين

(٤) فتح الباري ٨/ ٤٥٥

(٥) الآية ٢٢٤ وقد درسنا الآية الكريمة في كتابنا تأمّلاتٌ في سورة البقرة ١٢٨٧ ـ ١٢٩٠

المدينة المنّورة. وبسبب تورّط مسطح في حادثة الإفك أقسم أبوبكر رضي الله تعالى عنه أن يمنع عنه ما كان يعطيه إيّاه. والآية الكريمة نزلت في أبي بكرٍ رضي الله تعالى عنه وتشمل كلّ من أقسم بالله تعالى أن يمتنع عن فعل معروفٍ بسبب أذىً صدر من المتصدَّق عليه. إنّ المطلوب من الحالف أن يكفّر عن يمينه وأن يفعل المعروف.

ولا تكتفي الآية الكريمة بالنّهي عن الحَلِف إنّما تأمر من كفّر عن يمينه وعاد إلى عمل البّر أن يعفو عن الظّالم بترك مؤخذاته، وبأن يقبل عليه بصفحةٍ مشرقةٍ من وجهه، وبجانبٍ مضيءٍ منه ووضيء، دليلاً على نقاء الصّدر وسلامة القلب.

وحثّاً على بلوغ هذا النّوع من كمال الأخلاق تسأل الآية الكريمة على سبيل الإغراء: ﴿ألا تحبّون أن يغفر الله لكم﴾ وتضيف القول: ﴿والله غفورٌ رحيم﴾.

لقد جاء بشأن العبد، العفو والصّفح. وهذا منتهى ما يستطيع العبد أن يفعل.

وجاء بشأن الحقّ جلّ وعلا الرّبّ الرّحيم، المغفرة والرّحمة. إنّ المغفرة بمعنى السَّتْر. وإنّما يكون السَّتر تالياً للعفو والصّفح. وإنّ الرّحمة تاليةٌ للمغفرة، فهي سَترٌ وزيادة. إنها رحمة الله تعالى الّتي وسعت كلّ شيءٍ وحيّ. وهكذا يكون جزاء الإحسان من العبد الإحسان من الله تعالى وزيادة. إنّ الإحسان من الله تعالى في هيئة المغفرة زيادة إحسان في الحقيقة، فكيف بالرّحمة الّتي هي في الحقيقة زيادةٌ فوق زيادة. ولهذا لا غرابة أن يكون الجواب من أبي بكر رضي الله تعالى عنه ومن كلّ نفس كريمة: «بلى والله، إنّي أحبّ أن يغفر الله لي» وقال عن النفقة الّتي أرجعها: «والله لا أنزِعها منه أبداً».

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾

إنّ الّذين يرمون: بالفاحشة (١).

المحصنات: العفيفات (٢).

الغافلات: عن الفواحش (٣) بألاّ يقع في قلوبهن فعلها (٤) ونزلت هذه الآية في شأن عائشة، والحكم بها عامٌّ في كلّ من كان بالصّفة الّتي وصفها الله بها فيها (٥).

ولهم عذابٌ عظيمٌ يوم تشهد عليهم ألسنتهم: يَوْمَ مِنْ صلة قوله ﴿ولهم عذابٌ عظيم﴾ والمراد يوم القيامة، وذلك حين يجحد أحدهم ما اكتسب في الدّنيا من الذّنوب عند تقرير الله إيّاه بها فيختم الله على أفواههم وتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون (٦).

يومئذ: يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم (٧).

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ٨٢

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ٨٢

(٣) تفسير الطّبري ١٨/ ٨٢

(٤) الجلالين

(٥) تفسير الطّبري ١٨/ ٨٣

(٦) تفسير الطّبري ١٨/ ٨٤

(٧) تفسير الطّبري ١٨/ ٨٤

يوفّيهم الله دينهم الحقّ: يوفّيهم الله حسابهم وجزاءهم الحقّ على أعمالهم(١).

ويعلمون أنّ الله هو الحقّ المبين: ويعلمون يومئذٍ أنّ الله هو الحقّ الّذي يبيّن لهم حقائق ما كان يعدّهم في الدّنيا من العذاب، ويزول حينئذٍ الشّكّ فيه عن أهل النّفاق الّذين كانوا فيما كان يعدهم في الدّنيا يمترون(٢).

إنّ الّذين يرمون بالزّنا، ويقذفون بالفاحشة، العفيفات، الغافلات عن الفواحش، بألاّ يقع في قلوبهنّ، ولا يخطر ببالهنّ فعلها، المؤمنات بالله تعالى وبرسوله ﷺ، لعنوا في الدّنيا والآخرة، وأُبْعِدوا من رحمة الله تعالى الواسعة وطردوا، ولهم عذابٌ عظيمٌ، وعقابٌ أليمٌ، يوم القيامة.

في يوم القيامة المجموع له النّاس المشهود، تشهد عليهم ألسنتهم طوعاً في حال الاعتراف، كرهاً في حال الإنكار، كما تشهد عليهم أيديهم الّتي يبطشون بها، وأرجلهم الّتي يمشون بها، تشهد عليهم بما كانوا يعملون، حينما يختم الله تعالى على أفواههم في حال الإنكار.

في ذلك اليوم المهيب الّذي يقوم النّاس فيه لربّ العالمين للحساب والجزاء، يوفّيهم الله تعالى حسابهم الّذي يستحقّونه على أعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ، وفي ذلك اليوم يعلمون أنّ الله تعالى هو وَحْدَه الحقّ، وما خلا الله تعالى باطل، وأنّه جلّ وعلا هو الذّي يبيّن الحقّ الّذي اختلف الخلائق فيه في الدّنيا ويظهره، ويزهق الباطل ويدحضه.

---

١) تفسير الطّبري ١٨/ ٨٤

٢) تفسير الطّبري ١٨/ ٨٤

ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات: عن ابن عبّاس: الخبيثات من القول للخبيثين من الرّجال، والخبيثون من الرّجال للخبيثات من القول(١) والكلام(٢).

والطّيّبات للطّيّبين والطّيّبون للطّيّبات: والطّيّبات من القول للطّيّبين من الرّجال، والطّيّبون من الرّجال للطّيّبات من القول(٣) والكلام(٤).

أولئك مبرّءون ممّا يقولون: الطّيّبون هم المبرّءون ممّا قال الخبيثون(٥) من البهتان في زوجة النّبيّ ﷺ(٦) عائشة رضي الله تعالى عنها(٧).

ورزقٌ كريم: الجنّة(٨).

تقرّر الآية الكريمة أنّ الخبيثات من الكلام والأقوال، للخبيثين من الرّجال، ويلحق بهم الخبيثات من النّساء، وأن الطّيّبات من الكلام والأقوال، للطيبين من الرّجال، ويلحق بهم الطّيّبات من النّساء. ويلاحظ أن الآية الكريمة تبدأ بذكر الخبيثات، إيماءً إلى الكلمات الخبيثات الّتي قيلت في حق السيّدة عائشة رضي الله

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ٨٤

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ٨٥

(٣) تفسير الطّبري ١٨/ ٨٤

(٤) تفسير الطّبري ١٨/ ٨٥

(٥) تفسير الطّبري ١٨/ ٨٥

(٦) تفسير الطّبري ١٨/ ٨٤

(٧) تفسير الطّبري ١٨/ ٨٥

(٨) تفسير الطّبري ١٨/ ٨٦

تعالى عـنها، في حادثة الإفك، سبـب نزول الآيات الكريمات، وتحذيـراً من تلك الكلمات الخبيثات المرغوب عنها.

وتقرّر الآية الكريمة كذلك أن الطّيبين من الرّجال والنّساء، مبرّءون ممّا يقول الخبيثون والخبيثات، من كذبٍ على الشّرفاء، وهتكٍ للحرمات، ونهشٍ للأعراض. إنّ لهؤلاء الطّـيّبين والطّيّبـات العفيفي الّـلسان، الطّاهري الأردان، مـغفرةً من الله تعالى لذنوبهم، حينما تزلّ النّعل ـ لا سمح الله ـ بأحدهم، ورزقاً كريماً في الجنّة، الّتي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعـت،، ولا خطر على قلب بشرٍ، لأنّ من أهمّ نعوت الطّيّبين والطّيّبات التّوبة النّصوح إلى الله تعالى.

(٤)
(دروسٌ قرآنيّةٌ في الطّهر والعفاف)
الآيات (٢٧ ـ ٣٤)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا
وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾

حتّى تستأنسوا: حتّى تستأذنوا. عن ابن عبّاس: الاستئناس الاستئذان(١) حتّى تستأنسوا فتعلموا أيريد أهلها أن تدخلوا أم لا(٢).

لعلّكم تذكّرون: لتتذكّروا بفعلكم ذلك أمر الله عليكم واللازم لكم من طاعته فتطيعوه(٣).

تنادي الآية الكريمة الّذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله محمّد ﷺ وتقول لهم: لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتّى تستأذنوا أهلها بالدّخول وتسلّموا عليهم. روى أبو داود عن رجلٍ من بني عامر أنّه استأذن على النّبيّ ﷺ، وهو في بيته فقال: أألج؟ فقال النّبيّ ﷺ لخادمه: اخرج إلى هذا فعلّمه الاستئذان فقل له: قل: السّلام عليكم، أأدخل؟ فسمعه الرّجل فقال: السّلام عليكم أأدخل؟ فأذن له النّبيّ ﷺ فدخل(٤).

وتقرّر الآية الكريمة أنّ الاستئناس والاستئذان والسّلام خيرٌ لنا لعلّنا نتذكّر هذه التّعاليم السّماويّة، ونهتدي بهديها، ونستمسك بها، ونتخلّص من العادات الجاهليّة وغير الإسلاميّة في القديم والحديث. أي حتّى يستأذنوا قبل الدّخول ويسلّموا بعده. وينبغي أن يستأذن ثلاثاً، فإن أذن له وإلاّ انصرف، كما ثبت في الأحاديث الصّحاح(٥) أنّ المصطفى ﷺ حينما لم يسمع الإذن له بالدّخول بعد

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ٨٦ وتفسير ابن كثير ٦/ ٣٨ الشّعب

(٢) لسان العرب: «أنس»

(٣) تفسير الطّبري ١٨/ ٨٩

(٤) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٩. الشّعب

(٥) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٦و٣٧

الاستئذان للمرّة الثالثة انصرف، وهكذا فعل الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم والتّابعون لهم بإحسان.

ومن آداب الاستئذان ألاّ يقف المستأذن أمام الباب ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره كيلا تقع عينه على ما وراء الباب عند فتحه. روى أبو داود عن عبدالله ابن بُسْر أن رسول الله ﷺ إذا أتى باب قومٍ لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: السّلام عليكم، السّلام عليكم(١) وفي الصّحيحين عن رسول الله ﷺ أنّه قال: لو أن امرأً اطّلع عليك بغير إذن فخذفته(٢) بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح(٣).

ومن آداب الاستئذان أن يفصح المرء باسمه أو كنيته الّتي هو مشهورٌ بها كي يحصل المقصود من الاستئذان الذي هو الاستئناس المأمور به في الآية(٤) أخرج الجماعة عن جابر قال: أتيت النّبيّ ﷺ في دَيْنٍ كان على أبي، فدققت الباب فقال: من ذا؟ قلت: أنا. قال: أنا، أنا. كأنّه كرهه(٥).

فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾

فإن لم تجدوا أيّها المؤمنون المستأذنون في الدّخول أحداً يأذن لكم فلا تدخلوا البيوت الّتي هي لغيركم حتّى يؤذن لكم بالدّخول. وإن قال لكم ساكنو البيت

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٧.

(٢) الخذف: رميك بحصاةٍ أو نواةٍ تأخذها بين سبّابتيك. لسان: «خذف».

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٨

(٤) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٨.

(٥) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٨

ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم وأطهر، لأنّ الّذي يعطي الإذن بالدّخول غير موجود. وإلى أن يأتي الآذن، عليكم أن ترجعوا، وعليكم ألاّ تقفوا عند الباب.

إنّ الله تعالى عليمٌ أيّها النّاس بما تعملون وبحقيقة نواياكم فمجازيكم.

لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

جناح: إثمٌ وحَرَج (١).

فيها متاعٌ لكم: كلّ ما يُنْتفع به على وجهٍ مّا فهو متاع (٢).

ليس عليكم أيّها المؤمنون إثمٌ ولا حرجٌ أن تدخلوا بغير إذنٍ بيوتاً غير مسكونةٍ بأحدٍ من النّاس إذا كان لكم في تلك البيوت متاعٌ لكم، أو أشياءُ تخصّكم، أو منافع أُذِن لكم باستعمالها. والله تعالى يعلم ما تظهرون من رغبةٍ في الانتفاع بتلك المرافق وما تكتمون ممّا يوافق ذلك الظّاهر أو يخالفه. إنّ البيت المعدّ للضّيف إذا أُذِن له فيه أوّلَ مرّةٍ كفى(٣) وإنّ البيت المبنيّ ببعض الطّرق للمارّة والسّابلة لا يحتاج المرء في دخوله لإذنٍ من أحد(٤) ويلحق بذلك الأماكن الّتي يضع المرء فيها أغراضه بقصد التّجارة وسواها. إنّ الإنسان ليس عليه جناحٌ أن يدخل تلك البيوت غير المسكونة وأمثالها إذا كان في تلك الأماكن متاعٌ من حقّه أن ينتفع به، وكان الغرض شريفاً. إمّا إذا كانت النّيّة والعمل سيّئين فإنّ الله سبحانه وتعالى الّذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصّدور يجازي على كلّ ذلك. وإنّما يكون الجزاء من جنس العمل.

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ٩٠

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «متع» ٢/ ٥٩٤ مكتبة الباز.

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٢.

(٤) انظر تفسير الطّبري ١٨/ ٩١.

قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾

يغضّوا من أبصارهم: ينقصوا من طَرْفهم(١) ويكفّوا من نظرهم إلى ما يشتهون النّظر إليه ممّا قد نهاهم الله عن النّظر إليه(٢).

ويحفظوا فروجهم: عمّا لا يحلّ لهم فعله بها(٣).

يصنعون: الصّنع إجادة الفعل، فكل صنعٍ فعل وليس كل فعلٍ صنعا(٤).

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول للمؤمنين عن طريق القرآن الكريم وأن يأمرهم بأن يغضّوا من أبصارهم وأن يكفّوا من نظرهم الى ما حرّم الله تعالى عليهم النّظر اليه والاستمتاع به. وبأن يحفظوا فروجهم ويصونوها عن غير ما أحلّ الله تعالى لهم، فانّ ذلك أزكى لنفوسهم، وأطهر لقلوبهم. وتقرّر الآية الكريمة في التّذييل أنّ الله سبحانه وتعالى خبيرٌ بما يصنعون، لا يخفى عليه شيٌ ممّا ينوون ويقولون ويفعلون، وسيجازي كلاًّ على حقيقة ما نوى وقال وفعل، وإن كان الظّاهر للعيان معنىً آخر.

إنّ الخبير هو العالم بباطن الأمر ومن باب الأولى ظاهره. وإنّ الصّنع إجادة الفعل. إنه العباد مهما حاولوا إظهار نواياهم وأقوالهم وأفعالهم على غير حقيقتها فإنّ الله تعالى عليمٌ بكلّ الحقائق. قال عزّ من قائل(٥): ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصّدور﴾.

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «غض» ٢/ ٤٦٨.

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ٩٢

(٣) الجلالين.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «صنع» ٢/ ٣٧٥.

(٥) سورة غافر ١٩.